الثقافة الاجتماعية والحضارة

د. ميرنا أحمد دلالة *
عفراء مسعود الشيخ **

(تاريخ الإيداع 20 / 10 / 2020. قبل للنشر في 3 / 12 / 2020)

□ ملخّص □

تناول هذا البحث مفهوم الثقافة الاجتماعية هنا وليس الثقافة بمعناها العام فناقش أولاً مفهوم الثقافة وأنواعها في محاولة للكشف عن التنوع الدلالي للثقافة في ميدان الدراسات الاجتماعية. فتحدث عن الأنواع الخمسة للثقافة وميز فيما بينها وكشف عن الحدود الفاصلة بين كل نوع ثقافي، ثم كان لابد لهذا البحث أن يبحث في التصنيف الاجتماعي للثقافة لدى علماء الاجتماع عامة وعند دوركهايم بشكل خاص وأليات التصنيف التي استند إليها دوركهايم حول الثقافة الاجتماعية ثم تناول البحث العلاقة الجدلية بين الثقافة والحضارة فبين الأصل الاجتماعي للثقافة وكشف عن العلاقة الجدلية بين المكونات المادية والروحية للحضارة وكذلك بين الفرد والمجتمع والحضارة بشكل عام.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، الحضارة، الثقافة الاجتماعية، الطبع الاجتماعي، المجتمع.

* **أستاذ مساعد، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**
** **طالبة دراسات عليا ماجستير ـ قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**

Sociological Culture and Civilization

Dr. Merna Ahmad Dlalaa*
Afraa Masoud Alsheikh**

(Received 20 / 10 / 2020. Accepted 3 / 12 / 2020)

□ ABSTRACT □

This research studies the concept of sociological culture and not culture in its general sense. It, first of all, discusses the notion of culture and its types in an attempt to uncover the semiotic variance of culture in the domain of sociological studies. So, it tackles and differentiates between the five types of culture, and it reveals the demarcations between each cultural type. After that, the research studies, by necessity, the sociological categorization of culture by sociologists, in general, and by Durkheim in particular. It also approaches the latter's mechanics of classification upon which he hinges in studying sociological culture. The research then moves to tackle the dialectical relation between culture and civilization. The sociological origin of culture is thus expounded. The dialectical relation between the material and spiritual components of civilization and generally between the individual, society and civilization is revealed as well.

Key words: culture, civilization, sociological culture, sociological disposition, society

*Associate professor, Department sociology in the Faculty of Arts and Humane Science – Tishreen University, Lattakia, Syria

**Postgraduate Student majstir , Department sociology in the Faculty of Arts and Humane Science Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

تشغل الثقافة حيزاً واسعاً من اهتمامات الباحثين على اختلاف مشاربهم وتنوع اتجاهاتهم ذلك أن الثقافة مصطلح متعدد المدلولات والسبب أنه مصطلح متعدد الاستخدامات، ففي كل سياق استخدم فيه مفهوم الثقافة وجدنا أن الثقافة تمتلك مدلولاً بحسب ذلك السياق ولكي لا يتشعب بحثنا فإننا تناولنا في هذا البحث مفهوم الثقافة الاجتماعية، فحاولنا البحث في مجمل التعريفات والأنواع التي تطرق إليها علماء الاجتماع، وكيف تم تقسيم الثقافة وفقاً لعلاقتها بالمجتمع، وكيف أن كل ثقافة تعبر عن فئات ومجموعات اجتماعية بشكل من الأشكال، ثم تطرق البحث إلى التصنيف الاجتماعي للثقافة وأسس هذا التصنيف الذي ارتكز بشكل أساسي على الطابع الوظيفي للثقافة ودورها في المجتمعات بحسب تطور المجتمع، فيما إذا كان المجتمع بدائياً أم معقداً وبعد ذلك ناقش البحث العلاقة الجدلية بين الثقافة والحضارة، فكشف أولاً عن الأصل الاجتماعي للثقافة حيث تطرق البحث هنا إلى موقف ماركس من الحضارة وتأكيده على الطابع الإنتاجي حيث الثقافة تعكس العمل المنتج في البنى الفوقية وفي المؤسسات الاجتماعية والقانونية وغيرها، ثم تحدث البحث عن كيفية تشكل الطبع الاجتماعي ومدى تأثر هذا الطبع بجدل الثقافة والحضارة.

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من طرحه لقضية تتعلق بالثقافة بالمعنى الاجتماعي وليس الثقافة بالمعنى العام والمطلق، إذ تتحدد هنا الثقافة بإطارها الاجتماعي ويتم بحثها من خلال أدوات ومناهج علم الاجتماع وخصوصاً علماء الاجتماع الوظيفين.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن العلاقة بين الثقافة والحضارة، وكيف تكون الثقافة عاملاً هاماً في التأثير على الرموز الحضارية وكيف يؤثر التغيير الاجتماعي في تغير الحضارة.

منهجية البحث:

حاولنا في هذا البحث الاستعانة بمنهجين أساسيين هما المنهج الوصفي والمنهج النقدي التاريخي، فمن جهة أولى كان لابد من الاطلاع على جملة النظريات الاجتماعية التي تطرح مفهوم الثقافة، ومن جهة أجرى كان لابد من تقديم نقد لهذه النظريات والانتباه إلى النقد الموجه من اتجاهات بحثية أخرى تتناول مفهوم الثقافة.

النتائج والمناقشة:

أولاً: تعريف الثقافة:

أصبح واضحاً أن تعريف مصطلح ما لابد أن يعرف في السياق الذي يتم فيه استخدام هذا المصطلح والوظائف والأهداف التي نبتغيها من هذا المصطلح أو ذاك، وإذا كنا سنلجأ إلى مفاهيم علم الاجتماع لتحديد وتعريف مفهوم الثقافة فإننا هنا لابد أن نتعامل مع الثقافة وكأنها جزء من البناء الاجتماعي حيث الثقافة هنا نتاج العلاقات الاجتماعية والحياة الاجتماعية وتتكامل الثقافة ضمن دائرة التكامل الاجتماعي نفسه، وفي هذا الإطار يمكن القول إن علم

الاجتماع قد حدد مجموعة من التعريفات الخاصة بالثقافة، حيث نجد أن هناك من يتحدث عن الأنواع الثقافية بحسب تموضع هذه الثقافة في مجتمع ما أو حضارة ما، فهناك خمسة أنواع للثقافة هي:

أولاً: الثقافة العالية، وهي عادة تستعمل لتشير إلى المعطيات الثقافية ذات الخصوصية المتميزة بدرجة عالية من الرقي high status فهي تعتبر من جانب الوسط الثقافي أعلى درجات الإبداع الإنساني"[1]. وفي هذا النوع من الثقافة نجد أن المقصود هو الأعمال الإنسانية العالية كالفن والأدب والأعمال الموسيقية واللوحات الفنية، فالثقافة هنا ليست ثقافة جميع الناس بل ثقافة بعض الأفراد في مجتمع ما أو في حضارة ما، وتبدو الثقافة هنا نوعاً من الرقي الإنساني الذي يمنح الفرد سمواً إنسانياً واجتماعياً وحضارياً.

ثانياً: ثقافة العامة، وتشير إلى ثقافة الناس العاديين وخاصة أولئك الذين يعيشون في مجتمعات ما قبل الصناعة. فثقافة العامة تتكون ذاتياً وهي متجانسة وتعكس مباشرة حياة وتجارب الأفراد، حيث تبرز كما تبرز الأعشاب من الجذور"[2]، وكما يبدو من تعريف هذه الثقافة نجد أن الثقافة العامة هي ثقافة جيدة إلى حد ما ولكنها ليست ثقافة راقية أو عالية على الرغم من أن مثل هذه الثقافة تعتبر ثقافة أصيلة، ويمكن أن يضاف هنا ما قدمه علم اللغة الاجتماعي الذي يركز على الخصوصيات الثقافية التي تمتلكها جماعات معينة والكشف عن خصائص شعب من الشعوب ضمن أطر ثقافية واحدة أو متعددة كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين بالقول:" لقد كان هدف علم اللغة الاجتماعي، وهو يتطور في غضون القرن العشرين والنصف الثاني منه خصوصاص، فحص تلك المميزات داخل لغة من اللغات، إذ من خلالها يتسنى لنا قراءة الأصول الجغرافية والاجتماعية لشخص ما، بالإضافة إلى مستواه التعليمي، وإثنيته، وعمره، وجنوسته وجنسيته، أي جميع مجالات الهويات المصنفة التي نعتمدها في تصنيف الأشخاص على نحو روتيني"[3] مما يشير إلى أن اللغة تشكل عنصراً ثقافياً هاماً ليس فقط على صعيد الانتماء لجماعة ما ثقافياً بل وفي تحديد الهوية الثقافية للفرد ضمن منظومة الثقافة العامة التي يعيش في إطارها.

ثالثاً: ثقافة الجماهير" والمعارضون لهذه الثقافة يرونها أقل قيمة من ثقافة العامة. وإذا كانت الثقافة العامة ينظر إليها كصورة لما قبل الحداثة ولما قبل المجتمع الصناعي فإن ثقافة الجماهير هي إفراز للمجتمعات الصناعية"[4]، وهنا نجد أن هذا النوع من الثقافة لا يمتلك الأصالة اللازمة من أجل تكريس هذه الثقافة كنمط يسود على غيره وذلك لأن الجماهير والرأي العام يمكن أن يخضعا لسيطرة وتأثير وسائل الإعلام والدعاية وغير ذلك، فلا يمكن ضمان مثل هذه الثقافة، أي ثقافة الجماهير على أن تتحول إلى ثقافة أصيلة، هذا بالإضافة إلى أن النظريات الثقافية في الحضارة تربط بين الثقافة والتاريخ بحيث تجد كل ثقافة نفسها وكأنها الثقافة الأصيلة في حين أن بقية الثقافات لا قيمة لها من ذلك ما يذكره توينبي عندما يقول:" إن الوحدة التي تتجلى في الطابع الثقافي والكيان الاجتماعي لهذه الحضارات المتفرقة تتجلى أيضاً في نظرتها التاريخية، فقد كانت كل منها تعتقد أنها هي المجتمع المتحضر الوحيد، وأن من عداها من البشر ضرب من الهمج أو المنبوذين أو الكفرة"[5]. وعلى هذا الأساس فإن ثقافة الجماهير لا ترتبط ارتباطا عميقاً بالتاريخ كما يرى أنصار هذه النزعة مما يجعل من هذه الثقافة، ثقافة هشة غير قادرة على الصمود أمام هجمات ثقافية أخرى تهدف إلى تغيير الوجه الثقافي لجماعة من الجماعات.

[1] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، كيوان للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 2010، ص9.
[2] - المرجع نفسه، ص9.
[3] - جوزيف، جون. اللغة والهوية(قومية ـ إثنية ـ دينية). ت: عبد النور خرافي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 342، 2007، ص47.
[4] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص10.
[5] - تونبي، أرنولد. الحضارة في الميزان، ت: أمين محمود الشريف، منشورات وزراة الثقافة، دمشق، 2006،ص101.

رابعاً: الثقافة الشعبية" وهي تستعمل بطريقة مشابهة للثقافة الجماهيرية. وتتضمن أي منتج ثقافي ينال إعجاب الناس العاديين ودون أن يستهدف إنجاز خبرات ثقافية. مثال على ذلك برامج ال tv وموسيقا البوب وأفلام الأسواق الكبيرة مثل تيتانك، وحرب النجوم والروايات الشعبية مثل القصص البوليسية"[1]، والثقافة الشعبية هي ثقافة عفوية كما نرى، بسيطة ولا يمكن اعتبارها ثقافة خاصة لأنها قد تنتشر بين جماعات ينتمون إلى لغات وأديان ودول مختلفة لكنهم يتشربو هذه الثقافة من منبع واحد، وصحيح أن الثقافة الشعبية قد تتشظى إلى أشكال وأنواع بحسب تناول وتلقف كل شعب من هذه الشعوب لعناصر هذه الثقافة، إلا أن العصر الحديث يشهد توحيداً للمشهد الثقافي بما يمكن الثقافات الوافدة إمكانية إزاحة الثقافات الأصيلة والحلول محلها، وبشكل عام فإن الثقافة الشعبية هي ذات بعد سياسي وإعلامي أكثر مما هي ذات بعد فكري أو تاريخي، ولهذا نجد بأن الثقافة الشعبية تحتل مساحات جغرافية واسعة تتجاوز الحدود القومية للدول كما وتسعى إلى أن تكون ثقافة عالمية وذلك أيضاً بالاعتماد على اللغة عندما يمكن تناول كل عناصر الثقافة بلغة واحدة مثل الإنكليزية مثلاً التي تعتبر لغة الثقافة الشعبية على مستوى العالم، حيث نجد أن الثقافة الشعبية قد ألغت التباين والاختلاف اللغوي بين الشعوب، وقد أشار علماء اللغة إلى ذلك، أي إلى طبيعة اللغة التي توحد الثقافات، فهناك منهم من يقول:" إن اللغة الموحدة ليست شيئاً معطى، ولكنها دائماً مفترضة من حيث الجوهر، وهي في كل لحظة من حياتها اللغوية متعارضة مع حقائق تباين التعبير اللغوي. إلا أنها في الوقت ذاته، تجعل من حضورها الحقيقي قوة للتغلب على هذا التباين في التعبير اللغوي فارضة عليه قيوداً محددة"[2].

خامساً: الثقافة الفئوية" وهذا المصطلح للثقافة استعمل بشكل واسع في علم الاجتماع وهو يشير إلى مجموعة من الناس تشترك مع بعضها في مسألة ما(كأن تكون مصلحة مشتركة أو مشكلة يواجها جميع أفراد المجموعة أو ممارسة أو أسلوب مشترك) تتميز أفراد المجموعة بشكل واضح عن باقي أفراد المجتمع"[3]، ويمكن أن نلاحظ أن الثقافة الفئوية هي ثقافة المجموعات البسيطة أو ثقافة أفراد قلاقل ينتمون إلى ذوق واحد ويتبنون آراءً واحدة ولديهم مزاج واحد أو الذين تجمعهم مصلحة واحدة، سواء كانت هذه المصلحة مصلحة مادية أو معنوية وقد عرف هذا الشيء منذ زمن بعيد عندما جرى الكلام عن اكتساب هذه الفئات القليلة ألفاظا ثقافية تدل على مهنهم أو أفكارهم أو نوع العمل الذي يقومون به كما هو الحال مع لفظ جيتو كما يذكر بعض الباحثين.

ثانياً: التصنيفات الاجتماعية للثقافة:

تعددت الاتجاهات التي تناولت مفهوم الثقافة وذلك وفقاً لعلاقتها مع نمط الحياة والعادات والتقاليد وأسلوب العيش بهذا المجتمع أو ذاك ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الاهتمام بالثقافة من قبل العاملين بالحقول الاجتماعية قد ارتبط بما يمكن أن نسميه مفهوم التغيير الاجتماعي، وذلك لأن المجتمع نفسه لا يتوقف عند حد من الحدود بل أنه يبقى في حالة تطور وتغير، وهو ما ينعكس على مفهوم الثقافة جملة وتفصيلاً ومن أهم علماء الاجتماع هنا إميل دوركهايم ومارسيل موس وهما من الذين تحدثوا عن هذه العلاقة التي تربط الثقافة بالمجتمع وبالتالي ترصد وظيفة الثقافة داخل المجتمع وما يطرأ عليها من تغييرات، وقد كان السؤال الذي انطلق منه كل من المفكرين المذكورين هو كيفية نشوء الثقافة ومتى يصبح الإنسان مثقفاً، وقد اعتبرا" أن الثقافة تصبح ممكنة فقط عندما يتمكن الإنسان من التمييز بين الأشياء أو تصنيفها. وعند الولادة لا يستطيع الإنسان تصنيف الأشياء بل هو يرى فقط تدفق مستمر للصور. وهذا

[1] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص10.
[2] - جوزيف، جون. اللغة والهوية(قومية ـ إثنية ـ دينية). ص79.
[3] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص10.

يجعل من الصعب عليه فصل الأشياء عن بعضها. ولكي يطور الإنسان شكلاً من الثقافة لا بد له أن يوجد نظام لتصنيف الأشياء. وبدون ذلك سوف لن يعثر على معنى للعالم المحيط به"[1].

وقد انتبه الباحثون إلى هذه المسألة عندما وجدوا أن كل ثقافة لا تتغير ولا تتخذ شكلاً مناسباً للمجتمع يتلائم مع طريقة العيش، إنما يصبح شكلاً جامداً ولا يفيد في عملية التطور الاجتماعي وأكثر من ذلك فإن عدم الانتباه إلى أن الثقافة مرتبطة بالتطور الاجتماعي فإن كل الأشكال الثقافية تصبح نوعاً من الايديولوجيا والدوغمائية غير القابلة للعيش والاستمرار وقد انتبه إلى هذه المسألة رواد الفلسفة الاجتماعية الحداثية عندما رأى بعض المفكرين أن الحداثة " تنطوي على تناقضاتها الداخلية الخاصة بها وعلى ديالكتيكها الخاص بها، وبأن أشكالاً من الفكر والرؤيا الحداثية قد تتعرض للتجمد والتخثر فتتحول إلى معتقدات متزمتة جامدة ودوغمائية لتصبح بالية وعتيقة، وبأن أشكالاً أخرى من الحداثة قد تبقى مغمورة"[2]، وانطلاقاً من هذا الاهتمام، أي الاهتمام بعملية التغيير الثقافي وارتباطه بالتغيير الاجتماعي فإننا نجد أن المرتكز الأساسي الذي انطلقت منه نظريات التصنيف الاجتماعي إنما اعتمد على ما يعرف بالتركيب الاجتماعي، هذا التركيب الذي يختلف من مجتمع إلى آخر ومن مجموعات إلى أخرى، فقد درس كل من دوركهايم وموس الثقافة في المجتمعات البدائية ووصلوا إلى نتائج هامة فقد اعتقد" دوركهايم وموس أن الاستراليين القدماء كانت لديهم أكثر وأبسط المجتمعات البدائية، حيث اعتبرا هذه المجتمعات وفرت الدليل القوي حول كيفية تطور الأنظمة الإنسانية للتصنيف"[3].

إن هذا التطور في تصنيف الحياة الإنسانية وعلاقتها بالمجتمع يؤكد على مسألة هامة يمكن أن يكون علم الإناسة أو الانثربولوجيا قد توصل إليها وهي أن المجتمع قابل للتغير وخلال هذا التغيير تتغير الثقافة وأساليب الحياة والعيش وأنماط التفكير والعادات والأخلاق خصوصاً وأن الإنسان قابل للتكيف الاجتماعي وبالتالي القدرة على اكتساب الثقافة الجديدة الناجمة عن هذا التكيف وهذا التغير، وقد لاحظ بعض الباحثين بأنه" قد يكيف الإنسان نفسه مع العبودية، ولكنه يستجيب لذلك بتخفيض خصائصه الفكرية والأخلاقية، وقد يتكيف مع ثقافة يتفشى فيها تبادل سوء الظن والعداوة، ولكنه يستجيب لهذا التكيف بأن يصبح ضعيفاً وعقيماً"[4] .

بالطبع فإن مسألة التكيف تفرض دوماً أدواراً جديدة للفرد والمجتمع، كما تؤدي إلى إفراز ثقافة تتناسب مع الوجود الاجتماعي للأفراد والجماعات وبالعودة إلى دوركهايم فإننا نجد الطابع الاجتماعي للثقافة يفرض نفسه كلما تعقدت الحياة الاجتماعية وكلما أخذت هذه الحياة في المجتمع أشكالاً وأدواراً جديدة كما حدث ذلك عندما درس دوركهايم الحياة الدينية داخل المجتمع، فهو" يؤكد دوركهايم في عمل آخر له أن الثقافة هي ذات أصل اجتماعي. ففي كتابه الأشكال الأولى للحياة الدينية، نراه يوسع النقاش حول التصنيف البدائي ليشمل الأديان. فهو يرى أن الدين يرتكز على التقسيم الرئيسي للعالم إلى مقدس ودنيوي. وهو يستعمل مرة أخرى نموذج الجماعات الأسترالية البدائية ثم يتقدم في النقاش ليؤكد أن النظام الطوطمي يرتبط بقدسية المجتمع"[5].

[1] - المرجع نفسه، ص17.
[2] بريمن، مارشا. حداثة التخلف. دار كنعان، دمشق، ط1، 1993، ص159.
[3] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص18.
[4] - فروم، اريك. الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجيا الأخلاق، ت: محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2007، ص57.
[5] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص19.

بالطبع أن مقياس التصنيف الذي نجده في علم الاجتماع للثقافة إنما يعتمد بالدرجة الأولى على موقع الإنسان من الحياة الاجتماعية وكذلك الفاعليات الاجتماعية التي ينخرط الإنسان فيها ضمن النظام الاجتماعي والحضاري الذي يسلك فيه الإنسان، لذلك نجد أن بعض الباحثين في قضايا الثقافة والحضارة يرون أن أي تصنيف اجتماعي للثقافة لابد أن يأخذ بعين الاعتبار موقع الإنسان في هذا التصنيف، إذ إن المطلوب من كل تصنيف للمجتمع أو للحضارة الاعتماد على فاعلية الإنسان في هذا التصنيف، بحيث يكون الإنسان هو منطلق التصنيف وهو غايته، كما نلاحظ لدى الفيلسوف الاجتماعي والحضاري ارنولد توينبي عندما يقول:" كيف نصف الحضارة اليونانية أو حضارتنا الغربية أو أي حضارة أخرى من الحضارات العشر أو العشرين التي يمكن أن نعدها على أصابعنا ـ كيف نصفها على أسس إنسانية؟ أقول ـ جواباً عن ذلك ـ إن كل حضارة من هذه الحضارات إذا ما وصفناها على أسس إنسانية ليست ـ وهي في ميدان العمل ـ إلا محاواة مستقلة للقيام بمشروع إنساني عظيم واحد"[1]، والواقع أن تصنيف المجتمع على أساس موقع الإنسان ضمن هذه الثقافة وضمن هذا السياق الذي يرى أن المشروع الثقافي المعتمد على جعل المجتمع والحضارة قيمة إنسانية هو ما يستوقف الباحث في تحول أشكال التصنيف لدى دوركهايم نفسه حيث نجد أن هذا التصنيف قد لا يؤدي إلى الفكرة الأساسية التي طرحها توينبي حول أن تكون الثقافة والحضارة مشروعاً إنسانياً، ذلك انه ومع تطور المجتمعات وتقسيم العمل ظهرت الفردية والأنانية وهو ما أفسد الحياة الإنسانية التي عرفتها التصنيفات البدائية، وفي هذا الشأن قد وجد دوركهايم أن" التخصص في تقسيم العمل قد يشجع على ظهور الفردية المفرطة والتي يسميها دوركهايم بالأنا، أو ظهور حالة من الشذوذ، والشذوذ هذا قد ينتج من التغيرات في المجتمع والتي تفسد العلاقات القائمة وتضع القيم السائدة أمام التساؤل. وهذا من شأنه أن يقود إلى مشاكل اجتماعية مثل ارتفاع نسبة الانتحار"[2] .

وبالرغم من هذه المشكلات التي تعترض التصنيف الاجتماعي للثقافة فإننا نجد أن المرتكز الأساسي الذي اعتمد عليه التصنيف وهو الإنسان قد مارس دوراً كبيراً في عملية التصنيف لدى دوركهايم، إذ بحسب الأدوار الاجتماعية والتغيرات التي تطرأ على المجتمع نجد أن الثقافة التي تسود هي ثقافة مرتبطة بالتغيرات الاجتماعية.

ثالثاً: جدل الثقافة والحضارة:

لم يكن علم الاجتماع من خلال تصنيفاته المختلفة المصدر الأول لتقديم فهم عن الثقافة وعلاقتها بالحضارة، إذ يرى بعض الباحثين أن إمكانية دراسة الحضارة في طابعها الثقافي تعود إلى أكثر من اتجاه أو مصدر خصوصاً عندما ندرس الثقافة في المجتمعات ذات التصنيف الطبقي وأما الاتجاه الذي يحاول دراسة علاقة الثقافة بالحضارة كما يرى هؤلاء الباحثون فهو ذلك الذي أطلق عليه اسم الثقافة وتقاليد الحضارة، وهم أي الباحثون يؤكدون" إن ما نقصده بالتقاليد هي محاولة تقييم مختلف الثقافات تماماً كما يقوم الناقد الأدبي بتقييم أهمية وعلمية مختلف الكتب. والاتجاه التقليدي هذا كان خطيراً في نقده للثقافة الشعبية، وممجداً لقيمة الثقافة العليا بينما يعطي قيمة أقل لثقافة العامة. إن الاتجاه الحضاري التقليدي بشكل عام يدعم الميول النخبوية في الثقافة والتي ترى ثقافة الجماهير هي أدنى قيمة من ثقافة النخبة"[3].

[1] - تونبي، أرنولد. الحضارة في الميزان،ص80.
[2] - المرجع نفسه، ص20
[3] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص39.

وطالما أن الأمر كذلك، أي طالما أن الاتجاه الحضاري التقليدي يشدد على النخبة في مقابل ثقافة الجماهير فإننا يمكن أن نتحدث عن حضارة يسود فيها الفرد، ويخترع نظاماً فردياً، حيث لا تلبث الحضارة أن تتحول إلى جملة من الاحباطات التي تحاصر الفرد عندما تتحول الحضارة إلى جملة من المؤسسات ذات الثقافة النخبوية الواحدة فنجدها تتحول إلى حضارة قمعية محبطة للأفراد، أي للنخب طالما أن الحضارة بقيت محصورة في ثقافة النخبة ولم تستطع أن تكون حضارة تشد الروابط بين الفرد والحضارة، وهذه الملاحظة يأتي عليها بعض الباحثون بالقول" توحي هذه الاتجاهات بأن تبديد الطاقة والجهد لتنمية إحباطاتها الخاصة قد تضاءل كثيراً. وإن الروابط الحية بين الفرد والحضارة قد تراخت، فلقد كانت هذه الثقافة (الحضارة)، في الفرد ومن أجله، نظاماً من الاحباطات التي خلقت وتخلق باستمرار القيم والمؤسسات المتسلطة"[1].

هكذا نصل إلى المفهوم الذي مفاده أن الفرد يعيش جدلاً ما يتطور دوماً بين الحضارة والثقافة، فالثقافة من جهة تكشف عن طابع الحضارة المادي والروحي ومن جهة أخرى تنعكس الحضارة بصورة سلوك وأسلوب حياة شكلتها الثقافة وأعطتها طابعاً يمكن من خلاله فهم هذه العلاقة القطبية بين الثقافة والحضارة، هاهنا يطرح البحث سؤالاً حول الكيفية التي تتكون فيها الثقافة بوصفها حضارة، والحضارة بوصفها ثقافة، أي أننا لا بد أن نقوم بالبحث في أصل الثقافة ولكن هذه المرة ليس على طريقة دوركهايم وبقية علماء الاجتماع الوظيفين، إذ إننا ونحن نناقش جدل الثقافة والحضارة لابد أن نقول مع ماركس أن" الثقافة الإنسانية هي ذات أصل اجتماعي، وهي لا يمكن تصورها كانبثاق مباشر من الطبيعة أو من الغريزة الفطرية في الكائن البشري. فالثقافة تأتي من خلق الإنسانية ل أولى المجتمعات. وعلى عكس دوركهايم، لم يرَ ماركس الثقافة تنشأ وفق نظام التصنيف البدائي المنبثق من الهيكل الاجتماعي. بل اعتقد أن الثقافة لها أصل مادي في عمل الإنسان"[2].

هاهنا يبرز الجدل بين الثقافة والحضارة بشكل واضح ذلك أن تكون الوعي رهن بهذا الجدل بين كل منهما. ويبدو أن الإنتاج الحضاري المادي والروحي والثقافي إنما هو جزء من العمل الفاعل أي العمل الانتاجي الذي يقوم به الإنسان، فبعد أن يكون الإنسان قد أنتج حاجاته المادية الأساسية فإنه ينتقل إلى ما وراء الحاجات، أنه ينتقل إلى خلق الثقافة وفي هذا الشأن يقول ماركس:" إن تصورات الإنسان العامل وابتكاراته تختلف نوعيا عن السلوك الميكانيكي لحشرات النحل والحيوانات الأخرى، فالمعماري عندما يقوم ببناء هيكل معين إنما يختلف في ذك عن أفضل أنواع النحل كونه قبل أن يبدأ ببناء المشروع يمارس البناء في عقله. والنتيجة التي ينتهي إليها بعد عمليه البناء تكون حضرة سلفاً ومنذ البدء في تصوراته بشكلها المثالي"[3]. هكذا نجد أن الحضارة تقوم على علاقة جدلية بين الثقافة والاقتصاد والمؤسسات الاجتماعية والقانونية، ومن خلال هذه العلاقة الجدلية يتكون ما يسمى بالطبع الاجتماعي، ففي حين اعتقد بعض الباحثين أن السلوك والصفات والسجايا التي يتمتع بها الفرد إنما هي واحدة وكلها مجتمعة تشكل النموذج السلوكي الذي يميز فرداً معيناً، في حين رأى بعض الباحثين أن هناك تفاوت في الشخصية والطبع الاجتماعي وكذلك السلوك بحسب أنواع التربية أو مدى سيطرة المؤسسات الحضارة على الأفراد بما يجعلهم يعيشون أنماطاً حضارية مختلفة وبالتالي أن يعيشوا أنماطاً ثقافية مختلفة بحيث يبرز هؤلاء الأفراد بنية المجتمع بالكامل وهذا ما أشار إليه باحثون بالقول:" إن كل مجتمع ليظهر بنية معينة وطريقة عمل تكونان مشروطتين بعدد كبير من الوقائع الموضوعية. ومن بين هذه الوقائع

[1] - ماركيوز، هربرت. الحب والحضارة، ت: مطاع الصفدي، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007، ص117.
[2] - هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ص25.
[3] - المرجع نفسه، ص26.

طرق الإنتاج التي هي بدورها وقف على المواد الأولى الموجودة والتقنيات الصناعية وعدد السكان والعوامل السياسية والجغرافية، وكذلك على التقاليد والتأثيرات الحضارية التي يكون المجتمع عرضة لها"[1].

إن كل ما تقدم يكشف عن عملية جدل واسعة تقوم بين الحضارة والثقافة ويبدو دور المجتمع والثقافة الاجتماعية حاسمة في تكوين الحضارة إلى الحد الذي يمكن القول معه إن الحضارة والمجتمع يرتبطان بطابع الثقافة الاجتماعية. وبالتالي" يعتبر تاريخ البشرية، بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية موضوعاً للدراسة ومادة في الوقت نفسه"[2].

ـ النتائج والمناقشة:

يمكن القول إن البحث في الثقافة له مسوغات كثيرة ومتعددة، كما أن أي بحث لا يستطيع أن يعتبر أنه قد قال مقولاته الحاسمة حيال مفهوم الثقافة وتعريفها ووظيفتها، كذلك فإن ربط الثقافة بالمجتمع والحضارة قد يؤدي إلى مزيد من توليد الأسئلة حول المضامين المعرفية والتاريخية للثقافة وحول دلالات ربط الثقافة بالمجتمع والحضارة، وهذا يعني أن بحثنا هذا قد يكون محرضاً باتجاه أبحاث أخرى وهي تتلك المتعلقة بنوع الثقافة وطبيعتها ووظيفتها ثم علاقة هذه الثقافة بالتغيير الاجتماعي وبالبناء الاجتماعي مما يفصح عن مشكلات تحتاج إلى حل على يدي باحثين لديهم اهتمامات معرفية وبحثية من أجل استكمال طريق البحث والانطلاق إلى مجالات بحثية واسعة تربط بين علم الاجتماع من جهة وفلاسفة الحضارة والتاريخ من جهة أخرى.

[1] - فروم، ايريش. ما وراء الأوهام. ت: صلاح حاتم، ط1، دار الحوار، اللاذقية، 2012، ص100.

[2] - Kratke.R.Michale. Marx and World History. Department of sociology, Bowland north Lancaster university, Lancaster,2018,p.1.

. المصادر والمراجع:

1. هولبورن، وهارلمبس. سوسيووجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، كيوان للطباعة والنشر، ط1، دمشق، 2010.
2. جوزيف، جون. اللغة والهوية(قومية ـ إثنية ـ دينية). ت: عبد النور خرافي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 342، 2007.
3. تونبي، أرنولد. الحضارة في الميزان، ت: أمين محمود الشريف، منشورات وزراة الثقافة، دمشق، 2006.
4. فروم، ايريش. ما وراء الأوهام. ت: صلاح حاتم، ط1، دار الحوار، اللاذقية، 2012.
5. ماركيوز، هربرت. الحب والحضارة، ت: مطاع الصفدي، دار الآداب، بيروت، ط2، 2007.
6. فروم، اريك. الإنسان من أجل ذاته، بحث في سيكولوجيا الأخلاق، ت: محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2007،
7. بريمن، مارشا. حداثة التخلف. دار كنعان، دمشق، ط1، 1993.
8. Kratke.R.Michale. Marx and World History. Department of sociology, Bowland north Lancaster university, Lancaster,2018

Bibliography:

1- Berman, Marshall. (1993). *All the Solid Melts into Air: The Experience of Modernity*. 1st ed., Canaan Publication House, Damascus.

2- Fromm, Erich. (2007). *Man for Himself*: *An Inquiry in the Psychology of Ethics*. Mahmoud Munqidh al-Hashimi (trans.), Ministry of Culture, Damascus.

3- Fromm, Erich. (2012). *Beyond the Chains of Illusion.* Salah Hatem (trans.), 1st ed., al-Hiwar Publication House, Lattakia.

4- Holborn, and Haralambos. (2010). *Sociology: Themes and Perspectives*. Hatem Hameed Hasan (trans.), 1st ed., Kiwan Publication House, Damascus.

5- Joseph, John. (2007). *Language and Identity: National, Ethnic, Religious*. A'bd al-Nour Khourafi (trans.), A'lam al-Ma'rifah, 342.

6- Marcuse, Herbert. (2007). *Eros and Civilization*. Muta' al-Safadi (trans.), 2nd ed., Dar al- Aadab, Beirut.

7- Toynbee, Arnold. (2006). *Civilization on Trial*. Ameen Mahmoud al-Shareef,

8- Kratke.R.Michale. Marx and World History. Department of sociology, Bowland north Lancaster university, Lancaster,2018